الحسناء

الجزء السابع — المجلد الثاني

بيروت شهر كانون الثاني سنة ١٩١١

زنوبيا
ملكة تدمر

هل يخطر لعقل الشرقي الناظر الى مدنية اليوم المعجب بارتقاء الدول وتقدم الاحوال وانتشار روح الحقائق والمعارف واحترام الحقوق ان في هذه البلاد التاعسة قام منذ نيف وعشرين جيلاً دولة عربية دستورية تحاكي اعاظم دول اليوم بما كانت عليه من العز والمجد المقرون بالعدل والمساواة والقوة والنشاط والاجتهاد في ترقية الصناعة والتجارة شأن الامم الحيقراقية؟ او يخطر للقارىء ان نشوء هذه الدولة وتلك المدنية كان ناتج عن نشاط واجتهاد امرأة واحدة؟

تدمر مدينة قديمة على طرف الصحراء واقعة على بعد ١٢٠ ميلاً الى الجهة الشمالية الشرقية من الشام. وقد دعاها الرومان باليميرا كما تدعى في لغات الاجانب

مضى الهزيع الاخير من الليل واقبلت غزالة النهار تميس على هودجها المنير اللامع فخاضت بحار الغيوم السوداء طاردة امامها جيوش الظلام وارسلت من اشعتها سهاماً خرقت زجاج النافذة فاصابت من الراقدة وجهها الجميل وقد كساه الاصفرار فزادت به بهاء وجمالاً .

. . . . . .

خطوات يكاد لا يشعر بها فاعلها ويد مرتجفة ترفع الستار الحريري ووالد ووالدة يدخلان بهدوء تام يدل شحوب وجوههما على انهما لم يناما ليلتهما وهما يظناها تبتسم لهما ، دعوها فلم تجب ، جسا نبضها فلم يجداه ، نظرا الصورة بجانبها فعلما انهما القاتلان وهيهات ان ينفع الندم

علت صيحات الأم وكثرت تنهدات الاب فتراكض جميع من في المنزل وكثر الصياح ولكن هيهات للراقدة ان تسمع او تجيب وصوت من قد يعيد اليها الحياة بعيد .

. . . . . .

لا تزعجوا الراقد بعد مماتها فيكفيها علقم الظلم بحياتها ، دعوها تسير الى حيث اعتقدت سعادتها هناك .

. . . . . .

سار القوم بوقار والنعش تحمله الاكابل الواردة من جميع اطراف المقاطعة لتتشرف فوق السرير . واروا ذلك الجسد الجميل في التراب وضم القبر الصغير من ضاق بها العالم الكبير

. . . . . .

بسلام ايتها الراقدة ، بسلام يا من رأت تضحية حياتها خيراً لها من ان تنتقد والديها او تخون حبيبها ، بسلام ايتها الراحلة الشريفة فان صدى صوتك يرن بمسامع بنات جنسك مردداً

« اموت محبة بوالدي وحفظاً لميثاق من اهوى فلا اسفاً على الحياة »

البليغة . مصر العليا .

ميشال حايك

اليوم . وقد اجمع المؤرخون على ان سليمان ملك اسرائيل بناها لان قوافله كانت تقطع البراري والقفار لتأتيه بمحصولات البلدان الاخرى وكان موقعها في وسط مقفر ماؤه غزير وهواؤه جيد وقد كان يزيدها القفر المحيط بها تحصيناً وهيبة . فكان منظر اسوارها المنيعة المرتفعة يملأ قلب من يراها جلالاً ووقاراً وما زالت خاضعة للرومان الى ان ارتقت عرشها الملكة زنوبيا تحت اسم ملكة الشرق (١)

وكانت زنوبيا من افضل النساء التي عرفها العالم حتى اليوم . كانت امرأة فاضلة تعرف ما هو الواجب وتقوم به فاحسنت تربية اولادها وتهذيبهم

واصبحت ملكة فلم تبطرها ابهة الملك ولا وسوس لها شيطان المطامع روح الفساد والاستبداد فحكمت بالعدل والمساواة فاحبها قومها واخلصوا لها الطاعة وانقادوا اليها كل الانقياد . وكانت على جانب عظيم من الجمال والرزانة والتعقل والفضل . فتجنبت كل ما من شأنه التثقيل على العقل والقوى الادراكية من الملاهي الفارغة والاعمال والافكار التي طالما اضرت بعقول النساء وحجبت عنهن انوار الفضيلة والحقيقة

وكانت عالمة عاملة فالفت تاريخاً في الشرق . وكانت تعرف اللغات الارامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية مع اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب والمرجح انها تهذبت في مدارس الاسكندرية التي كانت محط رجال العلم في تلك الايام . وكأنّ المدرسة لم تشبع مطامعها من العلم والادب فكانت تأخذ دروساً خصوصية في البيت على الفيلسوف اليوناني لونجينوس الحكيم الذي قرأت عليه اليادة هوميروس . ولقد كانت منصرفة عن السياسة واوكالها الى بيتها ونفسها الى ان توفي زوجها الملك والمملكة ولاية تابعة للدولة الرومانية . فقامت

(١) الجنان — البستاني

وصية على ابنها الاكبر ورأت ان الحاجة تستدعيها لخدمة الوطن والجنسية فشمّرت عن ساعد الجد والاجتهاد وغرست اعلامها ونشرت سلطانها على مصر والشام والعراق وما بين النهرين واسيا الصغرى

وكانت تنسب نفسها الى البطالسة وتدعو كليوبطره العظيمة جدتها. وكان الفرق بينهما العفة والفضيلة التي تحصنت بهما زنوبيا طول ملكها. وحرك هذا النسب طامعها لامتلاك مصر فقامت تدعي بحق الاستيلاء عليها وجهزت عسكراً جعلته تحت قيادة وزيرها زابداس فانتصر انتصاراً مبيناً. وكان ذلك بدء الفتوحات التي عادت على زنوبيا بالغنى والجاه والعظمة

ولما فرغت من توسيع نطاق ملكها واخضعت العالم الشرقي الذي كان معروفاً وجهت همها الى تحسين احوال مملكتها الداخلية فبنت في بيروت القناطر التي لا تزال معروفة باسمها الى يومنا هذا — قناطر زبيدة —

وما زالت تنهض بالمملكة حتى جعلت تدمر صلة بين اسيا واوربا ومحوراً لصناعة الشرق ومركزاً لتجارته بل حوضاً تصب اليه الدنيا تجارتها وصناعتها ومما ساعدها على الارتقاء ضعف الدولة الرومانية وسوء الحال التي صارت اليه ايام الامبراطور غالينوس. وكانت انموذجاً حسناً لرجال دولتها ومثالاً فاضلاً لنساء المملكة. وكان قلبها مملوءاً محبة العلم والخير للرعية والعمران والشجاعة والامانة والعدل. فكان سلوكها قدوة لنساء المملكة وسداد رأيها امثولة لمن يحيط بها.

وكما نشر الفينيقيون اعلامهم على شطوط المتوسط. هكذا كانت دولة زنوبيا في داخل البلاد على ضفة الصحراء تشتد وتقوى وتزيد

قال تريبلوس المؤرخ الروماني — كانت هذه المرأة العجيبة سمراء اللون سوداء العينين قوية الخط وكانت الهيبة والجمال والعظمة تلوح على وجهها. وكانت

اسنانها بيضاء كاللؤلؤ وصوتها قويا وجهورا وجسمها صحيحاً سالماً . وكانت الابتسامات لا تفارقها فعاشت بعظمة ملوكية مقلدة ملوك الاكاسرة . فكانت تضع العمامة على راسها وتلبس ثوباً ارجوانياً مرصعاً بالجواهر وكثيراً ما كانت تترك ذراعها مكشوفة

وقال كارينوس كابتولينوس — كانت زنوبيا اجمل امرأة شرقية . وكثيراً ما كانت تجمع حكماء مملكتها وارباب الدولة للبحث والنظر في الامور فكانت تفوق الجميع في حسن سياستها ودقة نظرها فضلاً عن جمالها وهيبتها

وقال زيدان (١) كانت زنوبيا عربية في اطوارها لم ينبغ مثلها في النساء شجاعة وذهاء فضلاً عن تفوقها في السياسة وسداد الرأي واللطف وصحة القريحة مما لم يسمع باجتماعه في امرأة . وكانت سيرتها اقرب الى سير الابطال مما الى سير النساء . وكانت تجالس قوادها واعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها . وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من امم شتى وبينهم وفود من ملك الفرس او الارمن او غيرهما وقد يشربون حتى يسكروا وهي لا تسكر . ومع هذا كله لم تهمل اولادها فربتهم التربية الحسنة

غير ان الدول تدول والممالك تقوم وتسقط تلك سنة الله في خلقه فقد ارتقى الى عرش الرومان رجل من العامة قوي مجتهد نشيط — اوريليان العظيم — فاعاد المملكة الى عزها ومجدها وانتزع عن بعد الى مملكة الصحرا وخشي ان تزاحم الرومان في امتلاك العالم خصوصاً بعد فتحها مصر فارسل يطلب من زنوبيا ان تتنازل عن مصر وما بين النهرين فاجابته تقول — اني بمعونة الالهة سلموت مملكة كليوباترة ملكة . فجهز سنة ٢٧١ ق م جيشاً عرمرماً واتى قاصداً الشرق

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام

فلاقته زنوبيا بجيوشها الى انطاكية فانتشبت بينهما المعركة الاولى وكانت زنوبيا في مقدمة الجيش راكبة حصاناً عربياً فابلت البلاء الحسن واوقعت الرعب في قلوب الرومانيين . وكانت تحرض الجنود وتبث بهم روح الهمة والنشاط وتقول لا بد لي من دخول رومية في المركة المقبلة . غير ان ذلك لم يمنع الجيش الروماني الكثير العدد عن اتمام انتصاراته فاضطر جيش زنوبيا راجعاً الى حمص ومنها الى تدمر المدينة التي كانت يداً واحدة في خدمة الملكة المحبوبة

ولما وصل اورليان الى امام المدينة اواقفة وسط الصحراء — وعلم السكان والهدو — ورأى متانتها وشدة تحصينها مع علمه بتعلق ملكتها وطاعة شعبها وتفانيه في خدمتها اوجس خيفة . وطال الحصار دون فائدة . وكان اعضاء المجلس الاعلى في رومية يشكون من اطالة الحرب فكتب اورليان يقول لهم أني الى المجلس يقول :

يقول الرومانيون اني احارب امرأة . والحقيقة اني احارب ملكة عظيمة ولو كان الذين يتكلمون مني يعرفون من هي زنوبيا لكانت شكواهم مدحاً لي . ان تلك المرأة عظيمة في قوتها . عظيمة في اصالة رأيها وحكمتها وشهامتها . وكأني اشعر ابتداءها عبادة . وفي كل الحروب التي اقمتها باسم رومية العظمى لم يقف في وجهي عدو كهذه المرأة ولكني بمعونة الآلهة سانتصر عليها (١)

وكانت الذخائر والمؤنة تكاد تفرغ من تدمر فنظرت زنوبيا بعين الملكة والمتعقل وادركت الخطر الشديد المحدق بمملكتها فارتأت ان تضحي نفسها في سبيل وطنها فجمعت اركان مملكتها واخبرتهم ان اورليان لما عجز عن فتح المدينة بالقوة عزم على فتحها بالجوع وقررت ان تذهب وتطلب النجدة بنفسها من ملك فارس . وعبثاً حاول رجال دولتها منعها اذ علمت انه لا يمكن لاحد القيام بهذه الخدمة

(١) تاريخ الملوك الرومانيين لوبت

سواها فخرجت خفية من تدمر الى ان وصلت نهر الفرات وكان الرومان قد شعروا بخروجها فتعقبوها وادركوها وقد ركبت قاربا انقطع الى الضفة الثانية فنجوا. غير ان البحث الذي بظهر في دقائق شديدة كهذه مكن جيوش الرومان من استلام القارب الثاني المعد لحرس الملكة واسرع المجدفون بالتجديف فادركوها وبينها وبين النجاة شبر قليل

ثم حملوها الى اورليان وقد شعرت انها فقدت كل عزيز وثمين لديها

ووقع الجوع اهالي تدمر فسلموا مدينتهم لاورليان فنهبها وارسل ما كان فيها من الذهب والفضة والجواهر الى خزائن رومية . ثم قيد زنوبيا وابنها بقيود الذهب وحملها معه الى رومية حيث قضت نحبها هناك

هذه سيرة امرأة شرقية عظيمة . واني لا اقيس عظمتها بملكها ولا احسبها عظيمة لكونها ملكة — لان العظمة الحقيقية تقوم بكمال النفس وتتميم الواجب وتهذيب الاخلاق وتعويدها على الارتياح عند اتيان كل عمل حسن ومفيد — وكانت هذه السجايا والصفات راسخة متجسمة في المرأة البدوية الفاضلة

فما هي الامثولة التي يمكننا ان نتعلمها من تاريخ هذه المرأة .

اولاً — ان اكثر نساء اليوم يطلبن العظمة الفارغة ويسعين اليها من طرق مختلفة . فحري بهؤلاء ان يتشبهوا بهذه البدوية التي تركت المملكة وشؤونها لزوجها وانصرفت الى مملكتها الصغيرة — الى اولادها وبناتها فربتهم التربية الحسنة التي تؤهلهم ليكونوا رجالاً في المستقبل

ثانياً — فيا ايها الواجب ومعرفتها حقيقة نفسها . فلقد كانت زنوبيا اجمل نساء زمانها فلم تبطرها الكبرياء ولا استرسلت في التخيلات والاستسلام للعواطف . بل لم تجمع مجلسها الا كل مفكر عاقل وحكيم ولم تخرج مباحثها عن حدّ الاجتماعيات

والادبيات وهل من نجيل مجتمعات نسائنا في هذا العصر

ثالثاً — لما توفي زوجها الملك وابنها ولها صغار رأت الحاجة تدعوها لخدمة الوطن والامة فخلعت عنها ثوب المرأة واظهرت من التعقل والحزم والامانة في العمل ما جعل رجال دولتها يقتدون بها ويخلصون الطاعة لها ويضعونها في مصاف الفاتحات اللواتي يحق للشرق ان يفتخر بظهور امثالهن تحت سمائه

بيروت — المدرسة الكلية السورية — توفيق مفرّج

المرأة السامية

سألنا صديق الحسناء الخواجا حبيب بطراني المقيم في بنكوك عاصمة سيام ان يوافينا بوصف المرأة السامية لننشره فيها · فاجاب: تسألني عن المرأة السامية وتطلب مني ان اكتب عنها يا لحسائك خدمة لسيداتي الحسان · فقد عجلا بعض حالاتها ·

فهي معبودة دلالاً جميلة · عبدة ذليلة شجاعة · عاملة جادّة وسط · متغطرسة خيلاء غبية · كاسلة خاملة فقيرة · قانعة مرتضية وسط ·

وفي كل حالاتها تقريباً لا تحب ان تفكر بالغد ولا ان تهتم بما سيولده · ومع ان لها الحق بمشاركة زوجها في كل شيء · اذ يكون لها ما له وعليها ما عليه · فهي لا قانون للزوجة لها · شيء زوجة كل من يساكنها الى ان يضجر منها فيستبدلها · ويطلق عليها اسم البنت طالما لم تلد

ولقد ضاعفت في المرأة محبة تعداد الزوجات عند الساميين حب المحافظة على الجمال والقوى الجسدية مع شدة ميل الى الفتوة والخفة · وهي غيورة حسودة صبورة تحين الفرص للانتقام وتستبيح احياناً ما تأباه الحرّة الكريمة للتأثير على رجلها واما ما يلحق ذلك من عوائدها الخصوصية في ادابها واديانها فذكره يستغرق وقتاً طويلاً